لمسات جمالية في سورة القارعة

أ.د. سناء طاهر محمد

ملخص البحث

القرآن الكريم كتاب الله ودستور العلماء كثرت حوله الدراسات وما أوفت، فهو الذخيرة الحية والنبع الثري بما فيه من عقيدة وأحكام وتشريع وأخبار، وما يتميز به من أداء تعبيري معجز فهو المعجزة الكبرى التي تحدى بها محمد (() الأجيال جميعاً.

تناول البحث جمالية سورة القارعة، والنسيج الفني في هذه السورة وتماسكها الشكلي والدلالي الذي تمثّل بالتكرار والتوكيد والعطف والنعت فضلاً عن الفاصلة والجرس الموسيقي لأصواتها والبنية المقطعية في السورة لما فيها من مشاهد ليوم القيامة كلها لعبت دوراً مهماً في تماسك النص.

قسمت السورة على مشاهد ثلاثة، تمثل المشهد الأول بالآيات ﴿ الْقَارِعَةُ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴿٣﴾ ﴾، بينما تمثل المشهد الثاني بقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴿٥﴾ ﴾، أما المشهد الأخير فتمثل في قوله تعالى ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴿١١﴾﴾.

سورة القارعة متماسكة دلالياً تمثل هذا التماسك في حديثها عن موقف الجبال والمؤمنين والكافرين لذا فهي ترتبط كلها مع مفتاحها المتمثل في الآية الأولى (القارعة) ويتفق التماسك الشكلي مع التماسك الدلالي في تحقيق تماسك نص هذه السورة. فتناولنا توظيف التكرار والتوكيد والعطف والنعت وغيرها من وسائل التماسك النصّي، فالتوكيد اللفظي يربط بين الآية الأولى والثانية ثم يربط العطف بين الثانية والثالثة. والنعت يربط داخلياً بين عناصر الآية الرابعة، ويربط العطف بين الآيات من ١-٤، ولا يخفى دور الجمل التفسيرية في تحقيق تماسكها فالآيات من ٤-١١ تفسير للقارعة المذكورة في الآيات الثلاث الأولى فضلاً عن محاكاة مقاطع كل مشهد للمعاني التي احتواها، ففي المشهد الأول رأينا كثرة ورود المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص) وهذا ينسجم إلى حد ما ومعاني لفظة القارعة، وتتبع البحث محاكاة المقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح) في المشهد الثاني إذ تحول الناس إلى فراش متطاير والجبال العظيمة إلى صوف مفرق كما تتبع التوازن أو شبه التوازن في مقاطع المشهد الثالث الذي ينسجم هو الآخر مع التوازن الموجود في المشهد فكل من المؤمن والكافر توزن أعماله فإن رجحت الحسنات على السيئات فالجنة ونعيمها وإن كان العكس فالنار وعذابها.

المقدمة

القرآن الكريم كتاب الله ودستور العلماء، كثرت حوله الدراسات ومأ أوْفَتْ فهو الذخيرة الحية والنبع الثري بما فيه من عقيدة وأحكام وتشريع وأخبار وما يتميز به من أداء تعبيري معجز فهو المعجزة الكبرى التي تحدى بها محمد (() الأجيال جميعاً.

تناول البحث جمالية سورة القارعة والنسيج الفني في هذه السورة وتماسكها الشكلي والدلالي الذي تمثل بالتكرار والتوكيد والعطف والنعت فضلاً عن الفاصلة والجرس الموسيقي لأصواتها والبنية المقطعية في السورة لما فيها من مشاهد يوم القيامة كلها لعبت دوراً مهماً في تماسك النص.

قسمت السورة على مشاهد ثلاثة تمثل المشهد الأول بالآيات: ﴿الْقَارِعَةُ﴿١﴾مَا الْقَارِعَةُ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴿٣﴾﴾ بينما تمثل المشهد الثاني بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴿٥﴾﴾ أما المشهد الأخير فتمثل في قوله تعالى ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴿١١﴾﴾.

وجاءت الخاتمة لتقف عند أهم ما توصل إليه البحث من نتائج. والله أسأل أن يتقبل منّا ويتجاوز عن قصورنا وأن يحفظنا بالقرآن

ويؤنسنا بنوره.

سورة القارعة سورة مكية بلا خلاف وآيها إحدى عشرة آية بعد البسملة، وقد اتفقت المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة على تسمية هذه السورة (سورة القارعة).

وسميت بهذا الاسم (القارعة)؛ لأنها تتحدث عن عدد من مشاهد يوم القيامة والقارعة اسم من أسمائها ((لأنها تفزع القلوب بالأهوال ويقال سماها قارعة لثلاثة: لأنها تقرع في أذن العبد بما عمل وسمعه، والثاني تقرع أركان العبد بعضه في بعض، والثالث تقرع القلوب كما تقرع القصار الثوب))(١).

وقد ابتدأت السورة بهذا الاسم المفزع من أسماء يوم القيامة شأنه شأن بقية الأسماء الأخرى كالواقعة، والطامة والصاخة والحاقة إلى آخره من الأسماء والصفات التي أضفت على الحدث الجلل ما يستحق من رهبة واعتبار وأخذ جاء في الحسبان ولو رجعنا إلى معاجم اللغة لنتتبع المعنى اللغوي لكلمة القارعة لوجدنا ان العرب تقول: ((قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر جلل خطير فظيع قال ابن أحمر:

وقارعة من الأيام لولا سبيلُهُمُ لزاحت عنك حينا

وقال تعالى (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ) (الرعد/٣١) وهي الشديدة من شدائد الدهر))(٢). والقرع ضرب شيء على شيء ومنه قرعته بالمقرعة، وجاء في الصحاح: ((قرعة بالمقرعة قرعاً ضربه بها من باب منع ... والقارعة: الداهية والنكبة المهلكة))(٣). وقيل: أن أصل القرع ملاقاة الشيء اليابس لمثله .. ومنه اشتق القرّاع، وهو طير له منقار غليظ أعقف يأتي العود اليابس فلا يزال يقرعه ويدخل منه))(٤). ولعلّ التقاء الشيء اليابسِ لمثلهِ يصدر أصواتاً، مما حذا بعض المفسرين إلى القول بأنّ القارعة هي صوت النفخة يقرع الأسماع ويصكّها ويرعب كل من يسمعه ويذهله قال الضحاك: ((القارعة هي النار ذات التغيظ والزفير وليس بشيء، وأياً ما كان فهي من القرع، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد))(٥)، وقال البروسوي: ((القرع هو الضرب بشدة بحيث يحصل فيه صوت شديد، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة، والمراد بها ههنا القيامة ((سميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الإفزاع والأهوال وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتشار، والأرض والجبال بالدك والنسف))(٦).

وهذا الاستهلال المفزع الذي جاء كالقذيفة المدوية (القارعة) بلا خبر ولا صفة بدأ بهذه الكلمة، لتلقي بظلالها وجرسها الإيماء المدوّي(٧).

ثم اعقبها سؤال التهويل (ما القارعة) لتعظيم الأمر ولإشعار السامع بخطورته؛ لأن هذا الأمر من الأمور الغيبية من الإنسان غيبة مطلقة فلا يستطيع الوصول إليها بحسه المحدود، ولا بقدراته العقلية المحدودة، ولا يملك المسلم حيالها، إلا الوقوف عند حدود ما أورده الله تعالى عنها في محكم كتابه، أو فصّله لنا ختم أنبيائه ورسله (( ) في حديث من أحاديثه الشريفة؛ ولذلك أتبع ربّنا (ص) هذا السؤال التفخيمي التعظيمي التهويلي بسؤال موجّه إلى النبي (ص) وموجهاً كذلك إلى كل من يقرأ هذه السورة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ((والحملُ على معنى التفخيم والتعظيم أولى ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنه خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم))(٨) ولذلك لم يقل ((ما هي)).

وفي الآيات الثلاث يراد التعبير عن يوم القيامة ((لا بصريح اللفظ، بل بنسبة أوصافها وتأكيدها بالقارعة كناية عن القيامة فقد أثبت أمراً لأمر وهي أن القيامة تقرع القلوب بأهوالها وأصدائها ووقعها، وذلك تفخيم لمعنى القيامة وتعظيم لشأنها وهنا تخصص الصفة بالموصوف بوساطة طرف آخر، فالصفة القرع، والموصوف القيامة، والطرف الثالث هو القارعة فيما يبدو لي وذلك هو كتابة النسبة))(٩) وقد عبر الزملكاني عن المراد بكتابة النسبة بقوله: ((أن يأتوا بالمراد منسوباً إلى أمر يشتمل عليه من هي له حقيقة))(١٠). أي إثبات أمر لأمراً ونفيه عنه.

ويتجلى الإعجاز في الآيات الثلاثة الأولى أيضاً من تكرار كلمة (القارعة) ثلاث مرات وبتأكيدات مختلفة. الأول من لفظة (القارعة) نفسها ومفهومها اللغوي، والثاني بـ ((ما)) و((القارعة)) والثالث بـ ((ما أدراك)) و((ما)) ((القارعة)) وقد أضفى سيد قطب على

هذه التأكيدات مغزاها العميق كما مرّ قبل قليل. ففي ((قوة الجرس ومشاهد الصور المتحركة المهولة تحدث إيقاعاً شديداً يمس النفسي والأعصاب، ويربك المخيلة وهي تحاول أن تتخيل أبعاد الصورة المهولة ليوم القيامة)) (١١).

وقد أسهمت هذه اللفظة (القارعة) بإيحائها الصوتي في خلق الجو العام لمشهد يوم القيامة والحالة التي يصورها فالتكرار ((يزيد من تكثيف الصور البلاغية ويعكس حالة الانفعال العاطفي القصوى وشدة التوتر في الانفعال المكبوت الذي يتشعب ويصبح من العسير التعبير عنه بكلمات مبتسرة)) (١٢) فقام هذا التكرار بدور فاعل في تكثيف المعنى، فضلاً عن أن هذه الآيات الثلاثة جميع حروفها مجهورة إلا الكاف، وقد لعبت هذه الحروف دوراً مهماً بإضفاء جو الرهبة والشدة والتهويل على الموقف، موقف يوم القيامة ابتداءاً بالقاف وهو من أحرف القلقلة التي يتصف جرسها بالتفخيم ومروراً بالراء الحرف المكرر، وتكرار هذه الأصوات يحقق تجانساً حرفياً يعمل على جلب انتباه المتلقي وإثارة ذهنه للمعنى فيعد مفتاحاً للدخول إلى الآيات وفهمها؛ إذ يولد هذه التجانس نغمة متكررة داخل الآيات.

كما لعبت المقاطع الصوتية دوراً دلالياً مهماً في إبراز المعنى فالآيتان الأولى والثانية تضمن كل منهما أربعة مقاطع جاء اثنان منهما مغلقين في كل آية.

القارعةُ ما القارعةُ

ألْ	قا	رِ	عَهْ	مَلْ	قَاْ	رِ	عَهْ
طويل مغلق	طويل مفتوح	قصير	طويل مغلق	طويل مغلق	طويل مفتوح	قصير	طويل مغلق

في حين اشتملت الآية الثالثة على تسعة مقاطع كان نصيب المقاطع المفتوحة منها ثلاثة، وحتى المقاطع المغلقة التي جاءت في هذه الآية فقد انتهت بأحرف الدال واللام والهاء وهذه الأصوات تتميز بوضوحها وأهميتها في المحافظة على موسيقى الآيات فضلاً عن المعنى فالاختلاف في المقاطع يدل على اضطراب أحوال الناس وتشتتهم من هول هذا اليوم.

وما أدراك ما القارعة

وَ	ما	أدْ	رَاْ	كَ	مَلْ	قا	رِ	عَهْ
قصير مفتوح	طويل مفتوح	طويل مغلق	طويل مفتوح	قصير مفتوح	طويل مغلق	طويل مفتوح	قصير مفتوح	طويل مغلق

ونلاحظ أن الآيات الثلاث تكونت (١٧) مقطعاً منها (٥) مقاطع قصيرة (ص ح)، و(٥) مقاطع متوسطة مفتوحة (ص ح ح) و(٧) مقاطع متوسطة مغلقة (ص ح ص).

ونلاحظ على هذه الآيات كثرة ورود المقطع المتوسط المغلق الذي يتميز بالشدة والقوة لانتهائه بصامت وهذا يتلاءم مع ما تحمله لفظة (القارعة) من معاني الشدة والقوة.

ثم يجيء الإعجاز التركيبي في هذه الآيات الثلاث وهو متأتٍ من خلال بنى التوازي القائمة على المغايرة في الخبر ففي الآية الأولى جاء خبرها جملة اسمية القارعة (ما القارعة) ثم تلاه خبراً جملة فعلية وما (أدراك)، وجاء الخبر الثالث أسماً مفرداً ما (القارعة) ولم يقتصر ذلك على الخبر، بل هناك تغاير آخر في الموقع الإعرابي لهذه الآيات الثلاث، فالجملة الأولى (القارعة ما القارعة) ابتدائية لا محل من الإعراب، والجملة الثانية (وما أدراك) لا محل لها معطوفة على الجملة قبلها، في حين جاءت الجملة الثالثة (ما القارعة) في محل نصب مفعول به ثان للفعل (أدراك) (١٣). ويبدو أن هذا التغاير جاء لتقوية المعنى وتأكيده، وتعظيماً لشأن هذا الموقف، فالآيات في أصلها تصور لنا أهوال القارعة، وبدأت بالاستفهام تعظيماً لها؛ فجاء التوازي متغايراً ليبني حال الناس واضطرابهم فيها، وليضفي على النص إشارة إلى ذلك الموقف، فالتغيير في نوع الخبر والتغيير في الموقع الإعرابي لهذه الآيات إنما يدل دلالة قاطعة على الحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم. بقي أن نذكر في هذه الآيات أن ابن خالوية(١٤) يرى أن ما الاستفهامية في قوله (( ) (ما القارعة) خرجت لمعنى التعجب وأن المعنى عجّب الله نبيّه من هول يوم القيامة إلى ما أعظمه، ومن شواهده في تعزيز ذلك قول جرير(١٥):

أتيح لك الضغائن من مُرادٍ وما خطب أتاحَ لنا مرادَا

أي ما أعظمه من خطب وإلى ذلك ذهب أبو حيان في البحر المحيط(١٦) وذهب الزجاج إلى أن الأسلوب هو تخدير والعرب تخدر وتغري بالرفع كالنصب قال الشاعر:

أخو النجدة السلاحُ السلاحُ

وقرأ عيسى بن عمر (القارعة) بالنصب وخرج على أنه بإضمار فعل أي أذكروا القارعة(١٧) و(ما) زائدة للتوكيد و(القارعة) توكيد لفظي للأولى.

وتتوالى الآيات في السورة شارحة لبعض مشاهد هذا اليوم الرهيب حيث يقول تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴿٥﴾ (إذ تصف هاتان الآيتان كيف يكون الناس في بعثهم في قبورهم واندفاعهم في الخروج منها حفاةً عُراةً كما أخبرنا رسول الله (ص) فقد شبّه القرآن الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث ((في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار قال جرير(١٨):

إن الفرزدق ما علمت وقومَه مثل الفراش غشين نارُ المصطلي

وفي أمثالهم أضعف من فراشة وأذلّ وأجهل)) (١٩).

وقيل شبهوا بالفراش ((لاختلاف جهات حركاتهم فإنهم إذا بُعثوا فُزعوا فيذهب كلّ واحد منهم إلى جهة غير جهةِ الآخر كالفراش فإنها إذا طارت لا تتجه إلى جهة واحدة بل تختلف جهاتها)) (٢٠).

تمثل المشهد الثاني في قوله تعالى (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴿٥﴾ (ونرى أن المقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح) قد صوّر المعاني التي جاء بها المشهد.

يو ص ح ص	مَ ص ح	يـ ص ح	كو ص ح ح	نُنْ ص ح ص	نا ص ح ح	سُ ص ح
كَلْ ص ح ص	فَ ص ح	را ص ح ح	شِلْ ص ح ص	مَبْ ص ح	ثوث ص ح ح ص	
وَ ص ح	دَ ص ح	كو ص ح ح	نُلْ ص ح ص	جِ ص ح	با ص ح ح	لُ ص ح	كَلْ ص ح ص	عِهْ ص ح ص	نل ص ح ص
مَنْ ص ح ص	فوش ص ح ح ص								

فالمدود الموجود في المشهد والمتمثلة بالكلمات (يكون، الناس، الفراش، تكون، الجبال) قد حاكت إلى حدّ ما وصوّرت السعة والبسط المتجسد في تحول الناس إلى فراش مبثوث متطاير متفرق، وكذلك الجبال التي تصبح آنذاك كالصوف المفرق فضلاً عن دور كل من فاصلة الثاء والشين فالصوتان – كما هو معلوم من أصوات الرخاوة التي تمتاز بعدم انقطاع الصوت عند النطق بها لبرهنة ثم ينطلق(٢١) فضلاً عن ذلك أن الشخص عند سماعه الآية فإن تأثير الفاصلة يكون –والله أعلم- أقوى من غيرها من المقاطع بحكم وقوفنا عليها ففاصلتا المشهد تحتويان على صائت طويل وهذا يعزز ويقوي ما ذهبنا إليه.

ولو تأملنا هذه الكلمة (الفَرَاش) فإنها تصوّر بظلّها وجرسها وإيحائها وترسم صورة لهذا الانتشار وتصف الناس في هذا اليوم في منتهى الضعف والضالة وهم مستطارون مستخفون من هول هذا اليوم فالفاء حرف شفوي مهموس رخو والشين صوت رخو مهموس

وصفته التفشي فدلّ معناها (والله أعلم) على الضعف والذلة والانتشار. ثم إن علماء العربية يذكرون أن ((الفراش سمي فراشاً لتفرشه وانتشاره)) (٢٢) وبالتالي أوحت اللفظة بمدلولها على معناها.

ولو تأملنا الدقة في وصف الفَراش بكونه مبثوثاً لوجدنا الوصف يصور لنا كثرة الناس في هذا اليوم وتهافتهم فهي مأخوذة من الفعل الصحيح المضعف (بث) الذي يدل على ((تفريق الشيء واظهاره يقال بثوا الخيل في الغارة، وبث الصياد كلابه على الصيد وشتت الحديث نشرته)) (٢٣).

ويستمر المشهد القرآني في إبراز الصور الجميلة المؤثرة من خلال التشبيه فالجبال الشاهقة العظيمة ذات الصخور الصلبة والبنايات المعقدة والكتل الهائلة تتحول إلى هيئة الصوف المندوف المنتشر المتطاير في الهواء من قلة كثافته وخفة وزنه، فإذا كان هذا حال الجبال من هول القارعة وهي مخلوقات غير مكلفة، فما بال المكلفين من الإنس والجن ((هو المشهد الأول للقارعة مشهد تطير له القلوب شعاعاً وترجف منه الأوصال ارتجافاً ويحس السامع كأنَّ كلّ شيء يثبت في الأرض قد طار حوله هباءً)) (٢٤).

إن المشهد هنا يتسم بالهول العنيف تحدّده الكلمة الأولى (القارعة) التي تبدو من خلال السياق كقذيفة تلقي بجرسها الصوتي الرهبة والخوف في النفوس وتستمر الفاصلة في إحداث هذا الرنين الصاخب الموحش عن طريق التكرار والتوازن في هذا الجو تتغاير المرئيات وتتبدل فيصبح الناس من الخفة والرعب كالفراشات وتتحول الجبال إلى رمال مسحوقة كالصوف المنفوش ولعل حرف الشيم بهسيسه الصوتي يوحي بهذا الانسجام والتفتيت. هذا التلاؤم بين الإيقاع والموضوع فيه تعبير يتراوح بين القصر والطول وكذلك تدرّج المد الصوتي(٢٥).

فمن تناسق العرض أن تسمى القيامة بالقارعة ((ليتسق الظل الذي يلقيه اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها مع منظر الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش)) (٢٦).

والعهن الواردة في الآية الكريمة: الصوف المصبوغ ولو دققنا النظر في هذه اللفظة فلا نجد في قواميس اللغة لفظة تحل محلها تكون قادرة على تصوير هذا المشهد وحتى قراءة عبد الله بن مسعود – كالصوف المنفوش- لا تفي بالغرض المطلوب لأسباب منها:

أن العهن –كما قيده الراغب الأصفهاني- هو الصوف المصبوغ(٢٧) والمناسبة في ذلك كما يشير النسفي(٢٨) إن ألوان الصوف تناسب ألوان الجبال والدليل قوله تعالى (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ((٢٩)، والسبب الثاني والله أعلم أن هذه اللفظة بجمالها وظلها وجَرْسها الساحر المتمثل بوجود الهاء المهموسة الساكنة الوسط تدل على الخفة والبساطة ومما يعضد ذلك أن الأصل اللغوي لمادة (عَهَن) ((يدل على لين وسهولة وقلة غذاء في الشيء)) (٣٠) فضلاً عن أن بعض اللهجات العربية كانت تميل إلى السهولة والتخفيف في كلامها بإسكان عين الكلمة فكل هذه الأسباب مجتمعة تظهر إعجاز هذه اللفظة وتصور لنا الجبال الضخمة الثابتة في منتهى الهشاشة والخفة إنه النظم القرآني الذي يبهر العقول ويطير بالألباب ويذهل سر البلاغة وسحر البيان.

ثم يأتي وصف العهن بالمنفوش فزاد هذه اللفظة على ما جاء في سورة المعارج في قوله تعالى (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ((٣١) والسبب في ذلك ((أنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من القرع وهو الضَرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفش، لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرع بالمقرعة كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع (وهو من القرع) وهو فأس عظيم تحطم به الحجارة. فناسب ذلك ذكر النفش أيضاً فلفظة القارعة أنسب شيء لهذا التعبير كما ناسب ذكر القارعة ذكر الفراش المبثوث في قوله (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(أيضاً لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر ((ثم إن الفاصلة تقتضي أن يكون كل تعبير في مكانه فناسب كلمة (المنفوش) كلمة المبثوث)) (٣٢).

وتبرز جمالية الآيتين أيضاً من تكرار الصورة النحوية نفسها وهذا التكرار جاء ليزيد التماثل والتماسك بني الصورتين منهما متماثلتان في التركيب وفي الإعراب. فـ (يوم) ((منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتسويقه إلى معرفتها: أذكر يوم يكون الناس...الخ فإنه يدريك ما هي وق قيل أنه ظرف ناصبة مضمر يدل عليه القارعة أي تقرع يوم يكون الناس...وقيل ستأتيكم القارعة يوم يكون...)) (٣٣).

ثم يأتي المشهد الثالث من مشاهد الآخرة هو قوله تعالى (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴿٧﴾) وهذا المشهد هو

الهدف الأسمى من أهداف الحياة الدنيا التي هي قسمة من الزمن يهبها الله (( ) لكل مخلوق ليثبت في نهايتها جدارته بالجنة واستحقاقه بالنار. وهذه الآية وما بعدها تشير إلى ((تحزب الناس حزبين وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما أثر بيان الأحوال الشاملة للكل وهذا إشارة إلى وزن الأعمال وهو ما يجب الإيمان به حقيقة)) (٣٤). والموازين ((جمع ميزان وأصله مِوْزان بالواو ولكن قلبت ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها قيل للتعظيم)) (٣٥)، وقيل إنه جمع ((لاختلاف الموزونات وتجدد الوزن وكثرة الموزون لهم كقوله عن الأهلة وإنما هو هلال واحد)) (٣٦) ويوازي هذا المشهد قوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴿٩﴾) وهو مشهد أهل النار وهم يدعون إلى نار جهنم دعّا، فثقل الموازين كناية عن كونه بمحل الرضى من الله لكثرة حسناته لأن ثقل الميزان يستلزم فعل الموزون والأشياء التي توزن هي التي يرغب في اقتنائها وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف وأصالة الرأي بالوزن ونحوه(٣٧).

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(فالعيشة اسم مصدر العيش، أي في حياة والمشهور في (عيشة) ((جعل ذلك من باب النسب أي ذات رضا وجوّز أن تكون راضية بمعنى المفعول أي المرضية على التجوز في الكلمة نفسها، وأن يكون الإسناد مجازياً وهو حقيقة إلى صاحب العيشة وجوّز أن يكون في الكلام استعارة مكنية وتخيلية)) (٣٨) والمعنى أن أهلها يرضون بالعيش في دار الخلود فالقوم راضون والعيش مرضيّ)) (٣٩) ووصف الحياة بـ (راضية) مجاز عقلي لأن الراضي صاحبها راض بها فوصفت به العيشة لأنها سبب الرضى أو زمان الرضى(٤٠).

والطريف في هاتين الآيتين أنهما جاءتا متوازيتين في ترتيب جملهما وفي مواقع إعراب كل كلمة، أما في المقاطع الصوتية فإنهما اختلفتا في العدد فقد اشتملت الأولى (١٢) مقطعاً وتضمنت الثانية (١١) مقطعاً وهذا التغيّر إن دلّ على شيء فهو يدلُّ على ثقل ميزان المؤمن يوم القيامة، وخفة ميزان الكافر، والثقل والخفة قبلهما في الدنيا فما ثقُل، نزل إلى أسفل ثم يرتفع إلى عليين، وما خفت طاش إلى أعلى ثمّ نزل إلى سجّين)) (٤١). حيث هذه الأم ((الذي خفّت موازينه، أمُّهُ التي يفيء إليها ويأوي! والأم عندها الراحة. فماذا واجد يمتد أمه هذه..الهاوية..النار..الحامية!! إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية، ((وأما من خفت موازنيه في اعتبار الله وتقويمه ((((فأمه هاوية)) والأم هي مرجع الطفل وملاذه، فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية، وفي التعبير أناقة ظاهرة وتنسيق خاص، وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود)) (٤٢).

والمقصود بـ (الهاوية) المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك، يقال: سقط في الهاوية وأريد بها جهنم وقيل هي اسم لجهنم أي فمأواه جهنم. وقد أريد بـ (هاوية) النار كما يؤذن به قوله تعالى (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴿١١﴾(فهو تقرير لها بعد إبهامها والإشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل، وذكر أن إطلاق ذلك عليها لغاية عمقها فقد روي أن أهل النار تهوي فيها سبعين خريفاً وخصّها بعضهم بالباب الأسفل من النار، وعبّر عن المأوى على التشبيه بها فالأم مفزع الولد ومأواه وقيل شبه النار بالأم في أنها تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد وقيل: المعنى فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً وفي رواية أخرى عن قتادة إذا دَعَوا على الرجل بالهلكة هوت أمه لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه شكلاً وحزناً(٤٣). وعن الحسن قال: قال رسول الله (ص): ((إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين فيقولون له: ما فعل فلان فإذا قال مات قبلي قالوا: ذهب إلى أمه الهاوية، وبئست الأم وبئست المربية)) (٤٤).

ولما كان التعبير (فأمه الهاوية) غامضاً وهذا الغموض مقصوداً للتهويل بالمصير المجهول فقد أعقبه سؤال للتجهيل (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(ثم التفسير (نَارٌ حَامِيَةٌ) (٤٥).

وهذا تقرير لها بعد إبهامها والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل(٤٦) لذلك استخدم الضمير للاستفهام عنها. والمعنى وما أعلمك ما هي؟ ويأتي الجواب عن السؤال نار حامية أي شديدة الحرارة لدرجة انها خرجت عن الحد المألوف وانتهى حرّها وبلغ في الشدّة إلى الغاية لا يقوى عليه جلد هؤلاء الطغاة المتجبرين(٤٧) فكلما نضجت بدّلهم الله (تعالى) جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وقد وصفها المصطفى (ص) بقوله الشريف: ((نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)) (٤٨).

ووصف نار بـ ((حامية)) من قبيل التوكيد اللفظي؛ لأن النار لا تخلو عن الحمّى فوصفها له وصف بما هو من معنى لفظ نار(٤٩).

وإذا رجعنا إلى مقاطع المشهد الثالث فنراها متوازنة أو شبه متوازنة فقد ورد المقطع القصير (١٨) مرة، والمقطع المتوسط المفتوح (١٦) مرة، والمقطع المتوسط المغلق (١٧) مرة ونستطيع القول إن هذه المقاطع استطاعت أن تصور لنا هذا التوازن الموجود في المشهد والله

أعلم.

فَ	أمْ	ما	مَنْ	ذَ	قُ	لَتْ	مَ	وا	زِي	نُه	فَ	هُ
ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح

وَ	فِي	عِي	شَ	را	ضِ	يَهْ
ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص

وَ	أمْ	ما	مَنْ	خَفْ	فَتْ	مَ	وا	زِي	نُهْ
ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ص	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح ص

فَ	أمْ	مُ	هو	ها	و	يَهْ
ص ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص

وَ	ما	أَرْ	را	كَ	ما	هِ	يَهْ
ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح	ص ح	ص ح ص

نا	رَنْ	حا	مِ	يَه
ص ح ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ص

لأننا لو تأملنا هذا المشهد نراه يوازن بين حال المؤمن الذي ترجحت حسناته على سيئاته، وحال الكافر الذي ترجحت سيئاته على حسناته ((فيؤتى بحسنات المطيع في أحسن صورة فإذا رُجح فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فيخف وزنه فيدخل النار) (٥٠).

فالمسألة متوازنة فكما أن الجنة أعدت لمن يتق الله ويعمل صالحاً فترجح حسناته حينئذٍ على سيئاته، وكذلك فإن النار قد أعدت لمن يعصي الله ويكفر به فترجح سيئاته على حسناته.

وختاماً فإن سورة القارعة تتماسك دلالياً إذ أنها تتحدث كلها عن هذا اليوم يوم القيامة وموقف الناس يومئذٍ وكذا موقف الجبال وموقف المؤمنين والكافرين ولذا فهي ترتبط كلها مع مفتاحها المتمثل في الآية الأولى (القارعة) ويتفق التماسك الشكلي مع التماسك الدلالي في تحقيق تماسك نص هذه السورة فيوجد التكرار، التوكيد والعطف والنعت وغيرها من وسائل التماسك النصي، فالتوكيد اللفظي يربط بين الآية الأولى والثانية، يم يربط العطف بين الثانية والثالثة، والنعت يربط داخلياً بين عناصر الآية الرابعة، ويربط العطف بين الآيات من ٤ إلى ١٠ ولا يخفى دور الجمل التفسيرية في تحقيق تماسكها فالآيات من ٤ إلى ١١ تفسير للقارعة المذكورة في الآيات الثلاث الأولى(٥١) فضلاً عن محاكاة مقاطع كل مشهد للمعاني التي احتواها ففي المشهد الأول رأينا كثرة ورود المقطع المتوسط المغلق (ص ح ص). وهذا ينسجم إلى حد ما ومعاني لفظة القارعة. وشاهدنا كيف حاكى المقطع المتوسط المفتوح (ص ح ح). في المشهد الثاني تحول الناس إلى فراش متطاير والجبال العظيمة إلى صوف مفرق. ولاحظنا التوازن أو شبه التوازن في مقاطع المشهد الثالث الذي ينسجم هو الآخر مع التوازن الموجود في المشهد فكلٌ من المؤمن الكافر توزن أعماله فإن رجحت الحسنات على السيئات فالجنة ونعيمها وإن كان العكس فالنار وعذابها.

المصادر

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد العمادي (د. ت).
٢- أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة الكرماني، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٦هـ.
٣- الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو مصرية، ط ٥، ١٩٧٥م.
٤- أصول البيان العربي (رؤية بلاغية معاصر)، د.محمد حسين علي الصغير، سلسلة المائة كتاب تصدر عن الشؤون الثقافية العامة.
٥- الإعجاز الفني في القرآن الكريم: عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله، ١٩٨٠.
٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ابن خالويه، سط دار السرور، بيروت (د. ت).
٧- إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، حققه زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
٨- إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، تحقيق: زعير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
٩- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر للطباعة، ط ٢، ١٩٧٨.
١٠- تفسير روح البيان: اسماعيل حقي البروسوي- دار الفكر – بيروت.
١١- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)، الشيخ عادل عبد الموجود، زكريا عبد المجيد النوتي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦.
١٢- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت، ٢٠٠١م.
١٣- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرزاق المناوي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ.
١٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط١.
١٥- الجداول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد تسوية هامة، محمود صافي، مطبعة النهضة، ١٩٩٠.
١٦- ديوان جرير، دار صادر، بيروت، د.ن.
١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، مط الأميرية، (د.ت).
١٨- الصحاح وتاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل الجوهري، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٩٨٤م.
١٩- صفوة التفاسير: محمد الصابونجي، ضبطها عمر عبد السلام السلامي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
٢٠- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير: محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١.
٢١- علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء القاهرة.
٢٢- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦.
٢٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاوي في وجوه التأويل: الزمخشري.
٢٤- لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.
٢٥- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل صالح السامرائي، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
٢٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله النسفي، دار المعرفة، بيروت.
٢٧- مشاهد القيامة في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الكتاب الإسلامي، إيران، د. ت.
٢٨- معالم التنزيل: الحسن بن محمود البغوي، تحقيق: خالد العاك، دار المعرفة، بيروت.
٢٩- المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ١٩٦١م.
٣٠- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣١- من جماليات التصوير في القرآن الكريم: محمد قطب عبد العال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.
٣٢- منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري، قاسم البرسيم، بغداد.

الهوامش

(١) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم: السمرقندي ٥٠٥/٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٨٥٠-٨٥١ (قرع).

(٣) الصحاح: الجوهري ١٧٠/٢ (قرع).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي ٥٠٧/١.

(٥) روح المعاني الآلوسي ٢٢٠/٣٠.

(٦) تفسير روح البيان ٤٩٩/١٠، وينظر: صفوة التفاسير: الصابوني ٥٦٩/٣.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب ٦/٣٠.

(٨) فتح القدير الجامع بني فني الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكاني ٤٨٥/٥.

(٩) أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د.محمد حسين الصغير ص ١١٧.

(١٠) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٠٥.

(١١) الإعجاز الفني القرآن الكرمي ٢١٨.

(١٢) منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري: قاسم البريسم ٧٤.

(١٣) ينظر: الجدول في إعراب القرآن: الصافي ٥٧/٢٩-٥٨.

(١٤) إعراب ثلاثين سورة من القرآن ١٥٩.

(١٥) الديوان ٣٧.

(١٦) ٥٠٦/٨.

(١٧) ينظر: تفسير روح البيان ٤٩٩/١٠، وروح المعاني ٢٢٠/٣٠.

(١٨) .

(١٩) الكشاف ١٢١٨.

(٢٠) روح البيان ٤٩٩/١٠-٥٠٠.

(٢١) الأصوات اللغوية: ١٢٦.

(٢٢) الكشاف ١٢١٨.

(٢٣) معجم مقاييس اللغة ٨١٠ (بثّ).

(٢٤) في ظلال القرآن: ٦/٣٠.

(٢٥) من جماليات التصوير في القرآن الكريم: محمد قطب عبد العال ٢٤٤.

(٢٦) مشاهد القيامة ١٦.

(٢٧) المفردات في القرآن الكريم ٣٥٤/٤.

(٢٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣٥٤/٤.

(٢٩) فاطر / ٢٧.

(٣٠) معجم مقاييس اللغة ٦٩٠ (عهن).

(٣١) المعارج / ٩.

(٣٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: فاضل السامرائي ١٩٨-١٩٩.

(٣٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود ١٩٣/٩.

(٣٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي ٢٢٠/٣٠.

(٣٥) م.ن ٢٢١/٣.

(٣٦) من أسرار التكرار في القرآن: الكرماني ٢٢٣/١.

(٣٧) روح المعاني مج ٥١٤/١٥.

(٣٨) م.ن ٢٢٠/٣٠.

(٣٩) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه ١٦١.

(٤٠) التحرير والتنوير مج ٤١٥/١٥.

(٤١) في ظلال القرآن ٣٩٦١.

(٤٢) التحرير والتنوير مج ٥١٤/١٥.

(٤٣) روح المعاني ٢٢٢/٣٠.

(٤٤) تفسير مجاهد ٧٧٨/٢.

(٤٥) مشاهد القيامة ٧٠.

(٤٦) تفسير أبي السعود ١٩٤/١.

(٤٧) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٤٨٧/٥.

(٤٨) رواه البخاري ومسلم.

(٤٩) التحرير والتنوير ٥١٥/١٥.

(٥٠) التفسير الكبير: فخر الدين الرازي ٧٥/٣٢، وينظر: تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي الحنفي ٤٦٤/٦-٤٦٥.

(٥١) ينظر: علم اللغة النصّي بين النظرية التطبيق: صبحي إبراهيم الفقي ٣٤٨.